

فيروز.. ترنيمة الصباح الأزلية وعاشقة الوطن والشم في عيد ميلادها الرابع والثمانين

فيروز.. عندما تغني الملائكة



والقصيدة ارتقت
وبالحكي أجادت
فكانت رفيق صباحاتنا والمساء
وكانت أرجوحة الروح
فيروز تطفئ شمعتها الرابعة والثمانين
في ركن قصي
تحرس الأغنية والإنسان

صباحاتنا تصير مع صوتها أجمل
الوطن حين تغنيه يزداد شموخاً
الشمام بشعر سعيد عقل وشدها أكثر عذوبة
براءة الحب في شدها
وطهر الحياة في جوابها والقرار
عفوية الحياة والغناء
فيروز الحياة

سوسن صيداوي

مع أم كلثوم

في عام ١٩٦٦ أثناء زيارة فيروز للقاهرة كانت التقت بأم كلثوم، ولم تتردد جارة القمر عندما التقت محبتها ومحببتها في فندق النيل في الغرفة رقم ٦٢٤ بالدور السادس، أن تحدثهم عن لقاؤها بكوكب الشرق، بقولها إن أم كلثوم ظاهرة غنائية فذة وعظيمة ولذلك لن ننسى «وأحب أن أسعياها في راعتها مع محمد عبد الوهاب (انت عمري)». وأضافت صوت الأوطان بأنها صارت أم كلثوم بإعجابها بقصائدها الغنائية وخصوصاً القصيدة التي كتبها الدكتور إبراهيم ناجي (الأطال)، كما نشرت مجلة (آخر ساعة) ما أضافته فيروز حول صوت أم كلثوم: «إن أم كلثوم تتمتع بشخصية قوية جذابة ساحرة لا تقاوم، وصوتها حين تتكلم له نبرة خاصة متمعة». في حين كوكب الشرق عبرت لعصفورة الصباح ورفيقة المساءات فيروز بأنها كانت تستمع إلى أغانيها في أوقات كثيرة وعلى الخصوص أثناء هدوء الليل، كما أنها تحب وتتفاعل بأغنية (يا زهرة الدائن) وأغنية (اسهار وبعد اسهار).

في حين وعن رأي أم كلثوم بفيروز كتب أنيس منصور (في حديث غير عادي مع أم كلثوم سألتها عن رأيها في المطربات. قالت عن سعاد محمد إنها تلميذة في مدرستي، وعن فادية إن صوتها لطيف، وعن نجاة إن صوتها حنون، وعن فيروز إن صوتها فريد، وهذا رأي فريد أيضاً.. فليس مألوفاً في أحاديث الفم أن نجد مثل هذه العبارة البليغة الراقية.. وفيروز محبوبية في مصر تماماً كما هي في لبنان وفي كل البلاد العربية، وكان حدثاً عجبياً عندما غنت فيروز ثلاث أغنيات من تلحين عبد الوهاب.. أغنية: جارة الوادي.. ثم أغنية خايف أقول اللي في قلبي.. ثم أغنية باللهجة اللبنانية: اسهار..

ويوم جاءت هذه الأسطوانات إلى مصر كنا نتناوبها، وانتقلت من القاهرة إلى الإسكندرية إلى أسوان.. واستطاع محمد عبد الوهاب بذكائه التجاري المعروف أن يعطي أصدقاءه من الصحفيين أسطواناته واحدة، فكتب كل منا مقالاً عن هذه التحفة، وكيف أننا اكتشفنا صوت عبد الوهاب وهو يغني ضمن الكورس، وكيف أن ذلك دليل على حبه لفنّه. المهم أن نتجح الأسطوانات ولذلك حرص عبد الوهاب على أن يكون فيها صوته وبحضوره وفنه البديع.. وكيف أننا لاحظنا أن فيروز عندما غنت: خايف أقول اللي في قلبي. قالت: أنا زارني طيفك (بمنامي) قبل ما أحبك.. ولكن عبد

الوهاب يغنيها باللهجة المصرية فيقول: أنا زارني طيفك (في منامي)..
واتصل محمد عبد الوهاب وقال: أنت أخذت رأي أم كلثوم في فيروز وأنا ماذا قالت عني؟
وأدهشتني هذه الدعابة، لكن اتصلت بأم كلثوم: تصوري يا ست.. عبد الوهاب عاوز يعرف رأيك فيه..
فضحكت وقالت: على راسنا من فوق.

مع عبد الوهاب

وبالنسبة لموسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب قالت فيروز: «عبد الوهاب ملحن (انت عمري)، هو ملحن الجيل الحاضر، خاصة أنه قام بتطوير النغم الشرقي ووصل بتطويره إلى الذروة، وهو يتمتع بشخصية كبيرة مستقلة بذاتها، ونحن متفائلون بأننا نستطيع تقديم عمل مع محمد عبد الوهاب». وأول لحن قدمه عبد الوهاب لفيروز (اسهار بعد اسهار) كان كلمات ربحانية تفرض أجواءها في طول الجملة اللحنية وغياب التكرار والتطريب، بالإضافة لتفاصيل لحنية جعلت من اللحن أقرب إلى طابع الرحابنة منه لعبد الوهاب، لكن مع التعاون الثاني بين فيروز وعبد الوهاب، في أغنية (سكن الليل) بدأ حضور موسيقار الأجيال يتجلى واضحاً وخصوصاً بأن اللحن للقصيدة غير ربحانية.

إلى أن وصل الأمر مع أغنية (مر بي) وهنا قامت قيثارة السماء بغناء لحن وهابي صرف، من حيث التطريب وتكرار المقاطع، وحتى وصف عاصي الرحباني هذا اللحن بالذات بأنه عودة إلى الأحنان عبد الوهاب القديمة لكن بصياغة حديثة.
وبقي أن نذكر بأن أغنية «ضي القناديل» التي كتبها ووزعها عاصي ومنصور الرحباني، ولحنها الموسيقار عبد الوهاب، وسجلت في استديو بعلبك في بيروت ١٩٦٦، وهذه الأغنية الوحيدة البتامة التي جمعت بين الأخوين رحباني، وعبد الحلبي حافظ، حيث رغم أنه كان هناك أكثر من مشروع مقترح لجمع حلیم فيروز والرحابنة، منها مشروع غناء حلیم وفيروز لأوبريت «مجنون ليلى» بعد انتهاء عبد الوهاب من تلحينه كاملاً منتصف الستينيات، وذكر الصحفي اللبناني جورج إبراهيم الخوري أن «رضي القناديل» كانت كتبت لفيروز، ولكنها رفضت تسجيلها، وقالت إنها تصلح لرجل لا امرأة، لأنه في حال غنتها امرأة ستبدو وكأنها فتاة ليل تقف في شارع طويل يملأه الضباب وحيدة، وأنها على النقيض نالت إعجاب حلیم ورحب بغنائها، على حين شكك آخرون في رواية رفض فيروز لها، واستندوا إلى أن عاصي كان يعرف جيداً ما يليق بفيروز.

السيدة فيروز صانعة العيد في كل نهار

الرحباني لوالدهته فيروز وهي من نظم عمه منصور، وتوزيع عمه الآخر إلياس وتكرم والده عاصي، الذي بعد رحيله، ظل حاضراً في قلوبهم لكن فراغ غيابه على المسرح أدمى القلوب. تحولت أغنية «سألوني الناس»، إلى ما يشبه النشيد للعشاق المقترنين وفيها تخليد لمشارع حقيقية وصادقة اختصرت علاقة فيروز بزوجها عاصي الذي تدن به بالكثر على الصعيد الشخصي والفني، ومن جهة أخرى تعبر عن وجدان منصور الجريح المتألم بعدما وجد نفسه مواصلاً من دون نصفه الثاني وتوهم روحه في الحياة وعلى الخشبية، ويظهر ذلك في جملة «لأول مرة ما يكون سوا».

عكست «سألوني الناس» حزن فيروز على زوجها عاصي لكنها كانت الشاهد على عبقرية ابنها زياد الذي لحنها ولم يكن تجاوز من العمر الخامسة عشر عاماً، فنجحت نجاحاً هائلاً وهي إلى اليوم واحدة من أحب أغاني فيروز لجمهورها، كما أنها استهوت الكثير من الأصوات الشهيرة لغنائها في حفلاتهم الحية، غير أن الصيغة الأجل على الإطلاق تبقى الأصلية بصوت جارة القمر، فيروز.

فيروز الأم

قدمت السيدة فيروز أكثر من ٨٠٠ عمل غنائي، الكثير من متتبعي أغاني فيروز يعتقدون أن أغنية «سلملي عليه» من الأغاني العاطفية أي أغاني العشق والحب حيث تقول «سلملي عليه».. قوله إن يسلم عليه.. بوسلي عينيه.. قوله إن يوس عينيه.. أنت يلي تفهم عليه، الكلمات توحى بأنها تبعث برسالة غرام إلى حبيب بعيد، ولكن حقيقة هذه الأغنية تختلف عن ذلك، لماذا ولمن غنت فيروز هذه الأغنية؟
في عام ١٩٥٥ تزوجت السيدة فيروز من الملحن الراحل عاصي الرحباني وأنجبت له من الأبناء الملحن والممثل زياد الرحباني، والمخرجة التلفزيونية الراحلة ليال الرحباني، وهالي الرحباني، ومهندسة الديكور ريم الرحباني.
تعني أهلي أي عائلتي، وقد ولد متخلفاً عقلياً ومعاقاً جسدياً ويفقد النطق. فيروز قررت أن تفتني له أغنية، ولم تطلب من أي شاعر أن يكتب لها ذلك، بل قررت أن ترتجل وتعتبر الأغنية الوحيدة التي كتبتها فيروز بنفسها ولم تتلزم فيها بقواعد كتابة الأغاني ولم تتمسك بالقافية أو الوزن، وطلبت من ابنها الملحن زياد أن يضع لها لحناً مناسباً، وغنتها لابنها «هلي» الذي لم يسمعها ولن يفهمها.

العيد

أربعة وثلاثون عاماً كانت فيروز شريطاً لشعر الرحابنة، كانت برعماً لمسته الريح فأبكت وأضحكت الأملح الصغير لا حزناً ولا فرحاً، لا صباحات لنا ولا مساء من دون فيروز، فكيف نعايدها اليوم، وهي تصنع على مدار النهار عيداً؟

عاشت لتروض الإبداع وتسكنه كلمات أصبحت قانوناً شرعياً لكل صباح ومساء

العربي كافة وفقرة رئيسية لا يُستغنى صباح أو مساء من دونها، وأطلق عليها لقب «ملكة الصباح» ووصل رصيدها من الأغاني إلى أكثر من ٨٠٠ أغنية.

وهذا كله جعل فيروز تغني وتسنند إلى شعراء قدامى ومحدثين من قصائد الأخطل الصغير وجريز وعنترة بن شداد وأبي نواس، إلى إيلايا أبو ماضي وجبران خليل جبران ونزار قباني.

الجوائز

حصدت فيروز العديد من الجوائز والأوسمة منها وسام الاستحقاق اللبناني من الرئيس «كميل شمعون» عام ١٩٥٧ وهو أعلى وسام في الدولة، وسام الأرز عام ١٩٦٢، وسام الاستحقاق اللبناني، كما حصلت على ميدالية الكرامة عام ١٩٦٣ من الملك حسين، وسام النهضة الأردني من الدرجة الأولى.

وفي عام ١٩٨٨، حصلت فيروز على وسام جوقفة الشرف الوطني الفرنسي وسام الثقافة الرفيعة من تونس، وجائزة القدس من فلسطين عام ١٩٩٧م، وفي عام ١٩٧٥م تم إصدار طوابع بريدية تذكارية عليها صورتها تكريماً لها، كما تم منحها الدكتوراه الفخرية من الجامعة الأميركية ببيروت لتصبح أول مطربة تحصل على هذا اللقب.

ورشحها الرئيس الفرنسي الراحل فرانسوا ميتران لنيل وسام الجمهورية الفرنسية للثقافة والفنون، وهو أرفع وسام ثقافي في فرنسا، كما تالت العديد من الأوسمة العالمية في الكثير من الدول الأخرى.

آخر ألبوماتها

وكان آخر ألبوماتها بعنوان «ببالي»، رقم ٩٩ في مسيرتها الفنية الطويلة، الذي تعرض لتعليقات وآراء متباينة، فبينما عبر البعض عن خيبة أمله بقي الكثيرون على ولائهم وحبهم ل أداء المطربة التي عرف جمهورها بالتنوع على المستويات كافة، العمرية والفنية والاجتماعية والجغرافية. ويتضمن الألبوم الجديد عشر أغنيات، كانت قد طرحت ثلاثاً منها في بداية الصيف في إطار الترويج للألبوم.

وهذا ما جعل بعض معجبي فيروز، يرفضونه وهو أن تغيب سبع سنوات وتعود بأغنيات ليست لها، وقد أخذت معظم أغاني الألبوم من أغانٍ ممتدة مثل «قبليتي كثيراً» أو «بيسامي موتشو» التي كانت أول من غنتها كونسويلو فيلازكينز و«تخيل» التي غناها جون لينون.



سارة سلامة

«ملكة الصباح» و«جارة القمر» و«سفرة النجوم»، وصوت الملائكة».

والنقاد يعتبرون أن بداية انطلاقها الحقيقية في العام ١٩٥٢ عندما بدأت الغناء لعاصي الرحباني، وبدأت شهرتها في العالم العربي منذ ذلك الوقت، وكانت أغلب أغانيها آنذاك للأخوين رحباني عاصي ومنصور. وفي ١٩٥٥ تزوجت من عاصي الرحباني، وأنجبت منه زياد وهالي وليال وريما.

صوت تخفي الحدود

بصوتها العذب استطاعت الوصول إلى مختلف البلدان وغنت لحبيبتها الشام ومصر وبغداد وعمان وفلسطين وهو ما قد يفسر المكاتبة التي تتمتع فيروز بها ليس في قلوب اللبنانيين فحسب، بل في قلوب جمهورها الممتد في مختلف أنحاء العالم.

كما قدمت عدداً كبيراً من أغانيتها ضمن مسرحيات من تأليف وتلحين الأخوين رحباني وصل عددها إلى خمس عشرة مسرحية تنوعت مواضيعها لتشمل المقاومة والبطولة والحب، وكان من أشهرها (بياع الخواتم، وميس الريم، وأيام فخر الدين، وهالة والملك)، وكان آخر ظهور لفيروز على المسرح في كانون الأول عام ٢٠١١ في مسرحية «صح النوم».

غنت الأغاني الشعبية، والموشحات، والقصائد، وأغانٍ مقتبسة من اللحن الغربي، ولحن لها كبار الملحنين في عصرها، من أهمهم: سيد درويش، والأخوان رحباني، ومحمد عبد الوهاب، وفيلمون وهبة.

ملكة الصباح

أسلوبها وصوتها ومفرداتها جعلت من أغانيتها أشبه بصلاة مفروضة في إذاعات أنحاء العالم



الحب بأسمى صورة

عندما رجح قيس بن الملوح من سفره ولقي ليلى مخضبة أيديها بالحناء - دلالة على زواجها - قال لها «خضبت الكف على فراقتا» قالت له «معاذ الله ذلك ما جرى».

وعندما عشقت مي زيادة جبران خليل جبران ما يقارب العشرين سنة من دون أن يجتمعا تحت سقف واحد، ولما توفى، دخلت مستشفى الأمراض العقلية وتوفيت بعدها بفترة قصيرة، وتخلدت رسالتهم المقدسة في كتاب «الشعلة الزرقاء».

وعلى الرغم من تقلب أهواء غادة لغسان كنفاني وإهمالها وجفائها تجاهه، وعلى الرغم ذلك من زواجه من أن وزواجها، إلا أنه قال لها: «أنتي أعود إليك مطلقاً يعود اليتيم إلى ملجئه الوحيد».

وعندما غنت فيروز على المسرح بعد وفاة عاصي الرحباني لأول مرة، ووصلت لمقطع «لأول مرة ما يكون سوا» وبكت، رأت أغنية «سألوني الناس» النور بنص غير الذي نعرفه اليوم، وكان سيغنيها الفنان اللبناني مروان محفوظ لكن منصور الرحباني قرر لها مصيراً آخر بكلمات مختلفة عبرت عن آسى فقدان شقيقه عاصي بعد الرحيل، واستعار فيها صوت ومشاعر فيروز.

أغنية «سألوني الناس» التي حظيت بمساهمة أكثر من جيل من الرحابنة، ورمزت لذلك المشعل الذي حمله عاصي ومنصور وسلماه لشقيقهما الأصغر إلياس، ثم حمله بعد الثلاثة زياد وأبناء أعمامه، مواصلة لبناء صرح موسيقي غير مسار الأغنية العربية.

«سألوني الناس» هي أول أغنية يلحنها زياد